طبعة جديدة

أحمد رضا حوحو

غادة أم القرى



الأنيس

السلسلة الأدبية

تحت اشراف محمد بلقايد

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة

الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007

يهدى ويوضع في المكتبات ولا يباع

غـادة أم القـرى

الاهـداء

الى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب ... من نعمة العلم ... من نعمة الحرية .

الى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود الى المراة الجزائرية اقدم هذه القصة تعزية وسلوى .

قسنطينة 1 ـ 1 ـ 1947

احمد رضا حوحو

«اني لم احاول ان ادافع او ان اهاجم
وانما حاولت جهدي ان اتقن الرسم واضيء
جيدا معالم الصورة» .

ـ اندرية جيد ـ

مقدمـــة

- 1 -

في حياة كل أمة وجماعة نواحي ضعف ونواحي قوة ، يتناولها رجال الفن وحملة الأقلام بالتصوير والعرض . عرضا فنيا يساعدنا على التعرف على ميزات تلك الأمة وفضائلها ، وما لايزال بها مما يحتاج الى تدبير وتفكير ، كي تصل الى ما قدر لها من حياة راقية وعيشة سعيدة .

والحياة في الحجاز ، بعد مليئة بالحوداث التي تستحق التسجيل ، والظواهر التي لو وجدت عناية وافية في تصويرها لعرضت صورا قوية حية ، تدعو الى الاغراب والاعجاب .

فيها ما يعرض صورا باهتة ، وأفكار جامدة تحجرت في هذه القفار الجرداء والرمال القاحلة وبقيت مع الأيام تشير الى لون من ألوان الحياة تخلصت منها الأمم منذ قرون ورمت بها الى صفحات التاريخ ، فيها ما يدل على رغبات صادقة في التقدم ومحاولات تشبه محاولات الطفل حين يحبو يريد أن يصل الى ما وصل اليه غيره من حرية في الحركة ونشاط في العمل ورغبة فيه .

وكان الحجاز وهو يتمخض بما ثبت فيه من أفكار ونشر فيه

من علم ، يحاول أن ينزع عنه ثوبه البالي ، ويترك حياته الجامدة ليصل الى ما وصلت اليه أقطار وبلدان تتاخمه على هذه الصحراء ، وتقع الى الطرف الآخر من رماله ولم يكن شأنها من الحرمان والجهل أقل مما يعاني الحجاز . ونحن في هذا الدور الخطير من أدوار الانتقال ، أشد احتياجا الى فهم حياتنا فهما دقيقا بعيدا عن سلطان العادة وما يضيفه من أثواب القداسة بعيدا عن انخداع المشاعر وجمود التفكير .

وهذا لا يستقيم لنا بغير رجال القصص وحملة الاقلام . فهؤلاء وحدهم يستطيعون بمواهبهم السامية ، وعقولهم الجبارة انتزاع صور لما ينخر في دعائم بنيات وطننا المقدس ، ثم عرضها عرضا فنيا بعيدا عن كل تأثير كاذب من شأنه أن يخدر أعصابنا ويضاعف غرورنا .

- 2 -

تتكرر علينا حوادث لا ننكرها ولا نتحرج منها . ثم لا تلبث ان نقرأها في قصة ، ونراها تعرض علينا في ثوبها الحقيقي أو شكلها الذي اختاره لها الكاتب حتى ندركها على حقيقتها ، أو نلمس مضرتها . فترانا حينئذ نندفع في طريق نحاول فيه تحويرها واصلاحها - ان وسعنا ذلك - أو نهوي عليها بمعاولنا الهدامة ننقضها ونأتي على أساسها لا تأخذنا فيها عاطفة ولا تصدقنا عنها صادقة .

والأستاذ أحمد رضا حوحو بنشأته الاولى في بيئة تباين بيئتنا هذه . ثم بثقافته الفرنسية الحرة ، وبما نعرفه فيه من موهبة النقد البري ، ودقة الملاحظ ، وفهمه الصحيح لحياتنا باندماجه فيها خير من يحمل على عاتقه هذا الواجب المقدس يرشدنا بقصصه الممتعة الى مواطن الضعف ونواحي الألم .

فعسى أن نجد في حرارة اخلاصه وغيرته على هذا الوطن المقدس وتألمه مما تتقلب فيه ما يساعدنا على النهوض ويدفع بنا الى التقدم .

- 3 -

المرأة الحجازية التي صور لنا المؤلف حياتها البائسة تصويرا دقيقا ، وكشف لنا عما تعانيه من ضروب الحرمان هي اليوم بين مد وجزر لفكرتين يسودان بلادنا المقدسة . ومبدئين يصطرعان فيها ، يحاول كل منهما أن يجذب المرأة الحجازية اليه ، ويدفعها في الطريق التي يريدها ! فكرة تتمثل في هذا السواد الأعظم من الشعب الحجازي يسير على هدى من عاداته ويحرص على تقاليده ، يحتقر المرأة وينالها بغطرسته وجهله . ولا يطيق أن يراها تطالب بحقوقها وتدفع عن نفسها ، وهو لذلك يحملها على الجهل والخنوع ، ويدعها سجينة وراء هذه الجدر السميكة تحرمها من النور والحياة . وفكرة يعتنقها هذا النزر البسيط من الشباب الذي أخذ بحظ قليل من العلم والعرفان ، فهو يريد أن

تنسج على منوال المرأة المصرية وتسير في الطريقة التي سارت فيها شقيقتها المصرية من قبل ، غير انه لا يجد في نفسه من الجرأة ما يساعده على المجاهرة برأيه الآن ، والاقدام على دعوة المرأة الحجازية الى ما يحبه لها ، جهارا وعلانية ، وتجده اليوم يكتفي بهذه المقالات التي يودعها أفكاره ورغباته ثم يحجبها في مكتبه انتظار اليوم الملائم .

ـ 4 ـ

وكان الحديث عن المرأة الحجازية يتصل اليوم بطرفين متباعدين سار أحدهما حتى أمعن في الماضي السحيق وتقدم ثانيهما حتى اتصل بروح الاستهتار والخلاعة في هذا العصر، وكل بحث أو تفكير لا يستقيم ولا يكون الا اذا أغرينا المرأة بالبقاء فيما تقاسيه من حرمان وضياع حقوق، أو اذا اندفعنا مع فجور القرن العشرين. تطالب المرأة بهتك حجابها المقدس والخروج من بيتها الى الشارع ومنافسة الرجال في ميادين الحياة والاختلاط بهم. أما أن تصون المرأة حجابها الشرعي ـ التقليدي ـ وتنال حقوقها الحيوية وتقوم ببعض واجباتها في هذه الحياة، فذلك ما لا يلتئم مع رغبات جمهور من الشعب وفريق من متعلمي الشباب الشباب يسير على نهج أوروبي ويهتدي بهدى غربي لا يتصل بديننا ولا يمت الى بلادنا ووطننا بسبب.

والمرأة الحجازية في ذهول! أتذعن لمطالب قومها وتستمر على حياة لا تفرق في كثير ولا قليل عن حياة أمها وجداتها من قبل؟ أم

تستمع الى هذا النداء الخافت من فيئة الشباب وهو يلوح لها بحياة لاتستقيم مع عادات قومها ولا تتصل بسبب من تقاليد بلادها ونظم أسرها ؟

غير انها ارهفت أذنها اليوم الى صوت ثالث لفيئة من الشباب المثقف تعني بأمر اصلاحها في غير استهتار أو جمود تدعو لأن تنال المرأة نصيبها من العلم الديني والتعليم المنزلي والاجتماعي وتحظى بحقها في الحياة وهي موفورة الكرامة محفوظة الحجاب الشرعي .

ـ 5 ـ

كان صوت هذه الفئة خافتا ضعيفا يخنقه ما حوله من جمود ويخمده ما يحيط به من جهل غير أن صديقنا الأستاذ «حوحو» يريد أن يدفع بهذا الفريق المخلص الى الميدان فها هو يصور لنا حياة المرأة الحجازية وما تقاسيه خير تصوير ويعرض من ذلك عرضا لا يشوبه تزييف ولا يمازجه تزوير .

واني أرجو أن تكون لهذه الخطوات الجريئة التي يخطوها صديقنا «الحوحو» في القضية الحجازية ما يشجعنا ويغرينا على اقتفاء أثره واتباع طريقته علنا نشاركه في حمل عبء ثقيل من أعباء نهضتنا القادمة ان شاء الله .

المدينة المنورة : 2 ـ 12 ـ 1962 أحمد بوشناق

كانت زكية منهمكة في أعمالها اليدوية يحوطها سكون شامل عميق فلا ترى حولها حركة عدا حركات ابرتها وهي تتنقل بخفة فوق متن قطعة القماش الحريرية البيضاء المثبتة على قوائم منسجها الخشبي وهي تنثر وراءها أزهارا نضرة مختلفة الألوان والأشكال .

وكانت الفتاة تقود ابرتها بمهارة وخفة وهي منكبة على منسج التطريز بعطف وحنان ، عطف الأم الحنون على فلذة كبدها .

ثم ما لبثت أن رفعت بصرها وألقت نظرة سريعة على المنبه الموضوع أمامها فوق رف خشبي صغير وهتفت بصوت خافت كاد أن يكون همسا ولكنه كشف رغم خفوته عن نبرة موسيقية عذبة :

- الساعة التاسعة !... يا الله قرب العصر .

ثم نهضت بخفة الرشا ، ومن حيث لا تدري قادتها رجلاها نحو المرآة الكبيرة المثبتة على جدار الغرفة ووقفت أمامها .

وانعكس على صفحة المرآة الصقيلة خيال فتاة معتدلة

القامة ، رشيقة القد ، تكسو جسمها سمرة ، تشوبها حمرة خفيفة ذات عينين نجلاوين حالكة السواد . وغدت زكية تتأمل جمالها الفاتن وهي تمسح براحتها الرخصة على شعرها الفاحم المرسلة جدائله خلفها .

انها تدرك فتنة جمالها ولكن يعوزها من يفتتن بهذا الجمال ويتذوقه ...

وعلى اثر هذه الفكرة بدا لها طيف ابتسمت له وعكست المرآة ابتسامتها فكشفت عن ثغرها الجميل وبدت ثناياها ناصعة البياض شديدة الروعة وهي تلوح من بين شفتيها القرمزيتين فكانت جميلة حقا خليقة بفتنة العابد الناسك !

ثم ما لبثت هذه الفتاة أن أرسلت زفرة حارة تنبىء بعض الشيء عن آلام كامنة في أعماق قلبها يحيط بها سياج منيع من الكتمان والخفاء ...

ثم أخذت تجيل نظرها في أنحاء الغرفة وتتأمل أثاثها الشرقي الفخم كأنها تودعها سرا خطيرا .

وبدت زرابي وثيرة فارسية تغطي أرض الغرفة يحوطها مربع من الأرائك زرقاء اللون ، مزخرفة ، يبدو طرفها ، بينما اختفى الجانب الكبير منها تحت بسط حريرية بيضاء مفروشة فوقها ، وعلى الأرائك مساند من نوعها أسندت الى الجدار في نضود وتراخ .

عدت الفتاة تتنقل في جميع أنحاء الغرفة كأنها تبحث عن

شيء ضائع ، ثم تهالكت على احدى الأرائك المفروشة على دكة الروسن ، وطفقت تختلس النظر من وراء شبابيكها الضيقة المطلة على الأبطح ، الشارع العام لمدينة أم القرى العاصمة الحجازية وهي تتفرج على المارة وهم ينهبون الأرض بخطواتهم السريعة في طريقهم الى «الحرم» لأداء صلاة العصر مع الجماعة .

وفي تلك اللحظة ارتفعت أصوات المؤذنين ، وأخذت تجوب الفضاء بأنغامها الشجية منطلقة من منائر الحرم السبع ...

- الله أكبر ... الله أكبر .

واهتزت الفتاة هزة خفيفة وعلت محياها الفاتن مسحة من الخشوع .. خشوع المؤمن القوي الايمان حينما يتصور عظمة ربه وجلاله ، ثم توجهت نحو الكعبة وثبتت جامدة في خشوعها كأنها تمثال ، وغدت شفتاها تتحركان بسرعة مرددة صلوات عديدة تتخللها زفرات مقتضبة ما بين آن وآخر .

حتى اذا ما انتهى الأذان أسرعت الى مصلاها وتوجهت الى ربها تبثه شكواها ، وترجوه تحقيق آمالها . ثم رجعت مرة أخرى الى مقرها من الشباك ، وغدت تروح عن نفسها وهي ترمق المارة بامعان زائد كأنها تحصي حركاتهم وسكناتهم .

وعلى حين غرة فرت من بين شفتيها الورديتين صرخة صغيرة مكتومة واعتدلت في جلستها ، وثبت نظرها الحاد في نقطة معينة في الشارع أعارتها كل انتباهها وأخذت ترمق بنظرات متلهفة شابا في العقد الثالث من عمره ممتلىء الجسم شديد

السمرة ، يعلو عينيه السوداوين حاجبان كثيفان ، يحلي وجهه شارب خفيف ، وكان هذا الشاب الذي أخذ بمجامع قلب زكية يسعى في الشارع على عجل في اتجاه الناحية العليا للأبطح واستطاعات الفتاة أن تنفذ ببصرها الحاد الى جميع ملامحه رغم أن جزءا منها كان متواريا تحت عباءته الخفيفة السوداء التي وضعها على رأسه لتخفف عنه وطأة لفح أشعة الشمس الحارة .

وأخذت الفتاة تتبع حركاته بدقة وقلبها الفتي يخفق بشدة وهي تحاول أن تكبت من جموحه كأنها تخشى أن يفضح سرها التي تحرص كل الحرص على كتمانه ؟

والتفتت بحركة آلية يمينا وشمالا لتتأكد مرة أخرى من انفرادها وان ليس هناك من يراقبها ... وعادت نظراتها تبحث عنه من جديد ما بين الجماهير المزدحمة واذا بها تجده قد اقترب من منزلهم فارتعدت حينئذ فرائصها وغمغمت :

- يا الهي انه قادم نحونا ...

وليس أحد بالدار سواي !

وفعلا لم يكن بالدار أحد سواها فقد خرجت والدتها وأختها الكبرى ، تصحبها الجارة الى بيت خالتها فاطمة الكائنة في الناحية السفلى من مكة وكذلك أشعرها والدها منذ الصباح انه مدعو للغداء عند أحد أصدقائه ؟

- ماذا يريد هذا الزائر يا ترى ؟

طرحت الفتاة هذا السؤال على نفسها وقبل أن تفكر في

الجواب دوى صوت الحلقة المتينة المثبتة بالباب الخارجي وردد المنزل صداه ، وكان لهذا الصوت رنين خاص في قلب زكية فقد كانت تستمع اليه بقلبها ، وتكرر الطرق ثم تكرر والفتاة واجمة مذهولة تستمع اليه بلذة كأنما تتبع نغمات مقطوعة موسيقية ممتعة ، وودت لو لم ينقطع الطرق .. ثم تساءلت ...

أأكلمه ؟

وأخفرت خداها خجلا من هذه الأكذوبة حيث كانت واثقة انها لا تستطيع أن تفعل ذلك ...

ثم تكرر الطرق بشدة فنبهها من غفوتها ، وصفقت له تصفيقا حادا لتنبئه ان ليس هناك من يجوز له أن يكلمه أو يستقبله - على عادة أهل البلاد - ورفع الشاب بصره الى الشباك وابتسمت زكية من وراء مخبئها وقفل هذا راجعا من حيث أتى ، والفتاة تودعه بنظراتها من بعد وهي تردد ما بين شفتيها اسمه كأنها تتلو تسبيحة مقدسة ...

- جميل . جميل يا حبيبي ! متى أكون لك فأستقبلك بحريتي من دون أن يؤخذنا على ذلك أحد ..

متى .. ياحبيبي .. متى .. !!

أأقف على خطوة منك ولا أستطيع أن أريك وجهي ولا أن أسمعك صوتي وأنا المتلهفة الولهى ..

وشعرت الفتاة بوطأة الحجاب لأول مرة وأحست بعبء التقليد ولا سيما على الفتيات ، ويا ويل الشقية منهن التي يطأ

قلبها الحب فانها تعيش معذبة تعيسة ، فليس لها أن تتحكم في قلبها فتحب من تشاء وتبغض من تشاء ، بل لايجوز لها مطلقا أن تحب ، فالحب جريمة لا تغفر ، وفضيحة شنيعة ،فعلى الفتاة التي أصيبت بالحب أن تستتر وتتكتم ما أمكنها ذلك وتنتظر يد القدر تفعل بها ما تشاء ..

هذه هي حالة الفتاة المكية التي كانت تتمثل في زكية بصورة مكبرة ، فانها تحبه حبا عنيفا طاغيا يفوق في نظرها حب أية فتاة أخرى ، وخاضعة ـ في الوقت نفسه ـ لتقاليد شديدة ـ تقاليد الأسر القديمة ـ يجب عليها اتباعها والخنوع لتعاليمها ..

وهكذا أصبحت نهبا للآلام والأحزان . وغدت زكية ترفه عن نفسها باستعادة الذكريات الماضية الدفينة ، ذكريات الطفولة البريئة الحرة التي لا تخضع لنظام ولا تعترف بحكم وتمنت لو بقيت وحبيبها طفلين الى الأبد ، وما لبثت أن حلقت في أجواء الماضي ، وتوارت روحها وراء غيومه ، وأخذت صوره تمر أمامها واضحة جلية ..

فها هي وهي طفلة في عامها الثامن تلعب في فناء الدار مع أختها أسمى التي تكبرها بسنتين يشاركهما ابن خالتهما ـ جميل الذي لا يزيد سنه عن الكبرى ـ فيتزعم حركة الألعاب تزعم الدكتاتور المستبد .

وتذكرت المشاجرات العنيفة التي كانت تثور بينها وبينه

وهو يحاول أن يفرض عليها سيطرته فتستسلم أمي وتتمرد هي وتعاند ، وتذكرت يوم دفعها الحنق الى لطمه لطمة شديدة ، وكيف أمسك بها من شعرها وأخذ يجرها وهي تولول وتصرخ وتساءلت …

ـ متى أذكره بكل ذلك ؟..

ابتسمت حزينة ، وأخذت تحاول الفرار من المستقبل الغامض ، والعودة الى الماضي الزاهر ، وهكذا مرت بأيام طفولتها مرحلة مرحلة .

وها هي اليوم بلغت الثامنة عشر من عمرها فحجزوها بين جدران الدار ومنعوها من الظهور أمام «جميل» أو التحدث اليه منذ عدة سنوات .

وانها لتذكر أول مرة نهتها والدتها من الظهور أمامه وحذرها أبوها من الاتصال به أو التحدث اليه لأنها أصبحت امرأة ..

هذا هو ذنبها الوحيد ..

وتلقت أول الأمر هذا النبأ بعدم الاهتمام ، وربما سرها أنها أصبحت امرأة ، ورأت أن لا حرج في تنفيذ هذا الحكم ولكن سرعان ما أحست بفراغ شديد في حياتها وأصبحت شديدة الاكتئاب من دون أن تعلم لذلك سببا ، وكل ما تعلمه أنها ما تفتأ تجد نفسها تفكر في «جميل» ..

جميل الذي لا يريد أن يفارق مخيلتها ، وكلما تساءلت عن

السبب وحاولت ادراك كنهه أجابها قلبها على الفور بدقات شديدة لم تدرك معناها .

وأنى لهذه الفتاة أن تدرك من دقات القلب وهي التي تعيش في أحضان المحافظة والتقاليد ، وهكذا تسرب الحب هذا الداء الخطير الى قلبها الغر ، ووجد في جهلها وحداثة سنها وسذاجتها مرتعا خصبا لجرثومه الجريء الذي ما لبث أن احتل قلبها الفتي بدون مقاومة وبسط عليها سلطانه العارم بدون شفقة ولا رحمة وهي في غفلة من كل ذلك ..

وما كادت تستفيق حتى وجدت نفسها غارقة في حضيضه وتذكرت الحب في ألف ليلة وليلة، تلك القصص التي كانت تسمعها من والدتها أوقات السهر في ليالي الشتاء الطويلة، وقارنت ما بين حالتها وحالة بدر البدور، وهنا ارتعدت فرائصها وهتفت وهي بادية الخوف:

– اذن هذا هو الحب . فأنا أحب جميل . أجل أني أحبه .

وتكلم قلبها بلغته الخاصة ودقت دقاته السريعة الشديدة علامة الايجاب ، وهنا فقط فهمت زكية لغة القلب التي كانت تجهلها طيلة عمرها .

وحاولت أن تفكر في مستقبل هذا الحب واذا به يبدو لها غامضا مظلما ..

مذا تفعل لو تزوج جميل امرأة أخرى ؟

وارتاعت لهذه الفكرة واصفر لونها وصاحت :

ـ لا .. لا .. اني أحبه ولا أسمح به لأحد غيري ..

هذا ما قاله قلبها وهذا ما فرضه عليها الحب وأما تنفيذه فهي أعجز من أن ترفض الزوج الذي يختاره لها والدها ، ولا حيلة لها آنئذ الا أن تستسلم للأقدار التي ربما فرضت عليها شخصا آخر لا تعرفه ولا تحبه تعيش معه مرغمة كارهة ..

كانت أسرة آل خليل من الأسر الأستقراطية القديمة ذات الثراء والنفوذ في الحكومات السالفة لما كان لكبيرها الشيخ عبد الرحمن خليل من الكلمة النافذة والجاه العريض لدى المقامات السامية في عهدي الأتراك والأشراف .

وانتقل ذلك العهد بخيره وشره ، وانتقل الشيخ عبد الرحمن الى رحمة ربه ، وانتقلت معه الثروة والجاه والنفوذ .

وأصبحت أسرته اليوم متوسطة الثروة شديدة المحافظة ، خافتة السمعة ، لا يكاد يسمع بها أحد الا نفر قليل من العيلات القديمة التي تعيش في عزلة عن العالم الجديد .

أما عميد هذه الأسرة الحالي فهو بزاز بسيط يعرف بسليمان خليل ولم يكن سوى ابن ذلك الرجل الذائع الصيت الواسع الثراء فيما سلف . وكان سليمان هذا طويل القامة نحيل الجسم ، تبدو عليه آثار الشيخوخة وان كان لا يتجاوز العقد الخامس من عمره ، يدير محلا تجاريا بسيطا يقوم دخله بنفقاته .

تزوج سليمان منذ سنين خلت بفتاة رائعة الجمال من «البيوتات» كما يقول مواطنوه ، وهي الأسر القديمة المحافظة رزق

منها بنتين ، أسمى وزكية ، اعتنت والدتها بتربيتها تربية دينية قوية ولكنها شديدة الغلو ، فاكتفت بتلقينها الخياطة والتطريز ، وأما القراءة والكتابة فلا تزالان سرا غامضا بالنسبة اليها .

وكانت لزوج سليمان أخت أرملة توفي زوجها الضابط في الجيش ، في الحرب اليمانية السعودية ، تاركا ابنا تولى سليمان خليل السهر عليه ورباه فأحسن تربيته ، وعلمه حتى اذا ما شب وحاز شهادته الابتدائية ، سعى له في عمل في احدى المصالح الحكومية .

واستقل الفتى بوالدته في مسكن مستقل اذ أحس أنه أصبح غير مرغوب في بقائه في بيت مربيه حيث اكتملت أنوثة فتاتيه فأصبحتا تحتجبان منه وتفران مسرعتين من أمامه كلما فاجأهما .

وأخذ جميل تدبير حياته الجديدة برصانة وعقل وتدبير فكان فاضلا لا يعرف من طيش الشباب واستهتارهم شيئا ، وكل ما اقترف من ذنب هو حبه لأسمى ابنة خالته الكبرى التي ينوي أن يخطبها من والدها اذا ما اجتمع لديه مهر مناسب من الدريهمات اليسيرة التي يوفرها كل شهر من راتبه الضئيل شأن أمثاله من صغار الموظفين .

بينما زكية التي تحبه حبا عنيفا لا يعرف له حد تعتقد أنه لها وحدها ، فكانت تعيش في سراب خداع ، وأماني كاذبة تنتظر خطبته لها كل يوم ، وهي تضاعف جهودها في الخياطة

والتطريز حيث تخرج كل آن تحفا جديدة من ستائر مخدات ومناديل وغيرها ، تودعها في ركن حصين من صندوقها الضخم وتقفل عليها قفلا محكما حتى لا يراها أحد من أفراد الأسرة فيتهمها بحب جميل أو الاهتمام بالزواج ، فان الحب جريمة لا تغفر في مثل هذه الأسر ولو كان طاهرا نقيا ، واظهار الاهتمام بالزواج شيء مخجل ووصمة لا تمحى .

ولهذا كانت زكية تحرص كل الحرص على اخفاء حبها المتأجج وتتظاهر بعدم الاكتراث بكل ما يخص حبيبها ، حتى أنها عندما يأتي ذكره لمناسبة أثناء الحديث تفر من المجلس لتخفي خجلها بعيدا عنهم .

وهكذا كانت هذه الفتاة تعيش في عالم حب ولكنه حالك الظلمة ، وفي آمال زواج سعيد ولكنه يزيد عن كونه وهما لا يفكر فيه غيرها .

مـا كادت الشمس تتـوارى وراء الأخشبين - جبلين من جبال أم القرى العديدة الشاملة التي تناثرت الدور بينها بدون نظام ولا ترتيب - حتى دبت الحركة في دار الشيخ سليمان خليل حيث عادت الـوالـدة وابنتهـا من زورتها ، وجـاء رب الأسرة يتفقد أفرادها على عادته كل يوم .

وسأل الوالد ابنته الصغرى :

- هل سأل أحد عني اليوم يا زكية ؟

واضطربت هذه واحمر وجهها خجلا وتمنت لو أعفاها والدها من الجواب ، وأخيرا أجابته متلعثمة مضطربة :

- جميل ...

- جميل ... قابلته .

ورشق أختها أسمى بنظرة فاحصة لم تنتبه اليها زكية التي أسرعت نحو المطبخ وقلبها يخفق بشدة كأنها اقترفت ذنبا عظيما وهي تتعجب من جرأتها على ذكر اسم حبيبها أمام والدها .

وتساءلت :

- هل يغفر لي ذلك ؟!

ولم تزل زكية نهب هواجسها وأحلامها وآمالها عندما دوى في المسكن صدى طرق شديد على الباب الخارجي ، ولمحت الجارية العجوز تسرع لترى الطارق ، وما لبثت هذه أن عادت لتنبيء سيدها أن ثلاثة رجال لا تعرفهم يريدون مواجهته .

تشاءمت زكية من هؤلاء الزوار الأجانب الذين لا تعرفهم الجارية العجوز وهي الخبيرة بجميع معارف سيدها .

- ماذا يريدون في هذه الساعة المتأخرة من النهار ؟!

طرحت زكية هذا السؤال على نفسها وهي تتعجب من هذا الاهتمام الزائد بهؤلاء الأجانب ، هذا الاهتمام الذي ما فتىء أن استحال الى خوف شديد حاولت عبثا أن تدرك كنهه وراحت تشغل نفسها باعداد الشاي للزوار وهي تحاول التغلب على مخاوفها وادراك معنى هذا القلق ولكن بدون جدوى .

فان حسها الباطن ينذرها بأشياء رهيبة ، ولا غرابة في ذلك فهي تعلم حق العلم أنها عرضة كل يوم لصدمة عنيفة تحطم قلبها ، وتدرك كل الادراك أنها دائما وأبدا هدف لسهام القدر تقضي على سعادتها . فلا عجب اذن أن تكون نهبا لهذه المخاوف والاضطرابات .

استقبل الشيخ سليمان ضيوفه بجفاوة وترحيب متعلقين ، وهو يخفي في نفسه دهشة من هذه الزيارة الغريبة التي لم يكن ينتظرها ، ولا سيما وأن ليس بينه وبين زواره أدنى صلة ،

لاختلاف مشاربهم في الحياة ، فهو من أبناء الدنيا القديمة وهؤلاء من أبناء الجيل الحديث ..

وهذا الجيل الحديث نسيج وحده لأنه ليس حديثا في علومه أو حضارته كما يتبادر الى الذهن وانما هو حديث في بروزه وشهرته .

فأبناء الجيل الحديث في هذه البلاد هم عبارة عن طبقة من الناس كانوا في قائمة النكرات ، لا حسب لهم ، ولا نسب ساعدتهم ظروف التقلبات ، ووجدوا ميدانا واسعا للظهور على حساب الضحايا من الأبرياء الآمنين ، وواتتهم الفرص على جمع الثروة بشتى الوسائل المشروعة وغيرها ، لا يردعهم علم ولا يؤنبهم ضمير ، فاغتنوا وفرضوا سيادتهم على بقية الطبقات فرضي بها صغار النفوس واستكانوا لها ، ونفر منها ذوو الأحساب والأنساب ولم يعترفوا بها ، فهذه الطبقة المرتجلة هي دائما محل مقت وسخرية الأسر العريقة وغيرها من كبار الناس وسراتهم .

ولهذا كانت الهوة التي تفصل بينهم شديدة العمق . ولم يكن الشيخ أسعد ، زائر سليمان خليل ، الا أحد أبناء هذا الجيل الحديث ، وهو كهل في نصف العقد السادس من عمره ، قصير القامة ، مكتنز الجسم ، ذو عينين ضيقتين براقتين ، تبدو عليه علامات المكر والدهاء ، وهو زيادة عن كل ذلك حديث الثروة والجاه ، يحذره مواطنوه ويتجنبونه ، لأنه يدس دائما أنفه في ما يهمه وما لا يهمه ، ويشيعون عنه اشاعات كثيرة حول ماضيه

وجمع ثروته ، وحول تجارته وأعماله ، ويعرفون عنه الشيء الكثير ، ولكن ما من أحد يستطيع أن يصرح بذلك ، والشيء الوحيد الذي كان يردده الجريئون من مواطنيه ويشهدونه هو جهله المطبق ، ولكن الشيخ أسعد لم يعترف يوما بذلك بل يدعي معرفة كل شيء ، ويتطاول في كل مضمار ، ويناقش في كل فن ، وكان اذا أحرج بقراءة سند ، أو كتابة كلمة ، اعتذر بعدم وجود عويناته معه ، وذهب يلعن النسيان وضعف العيون معا وقام لفوره بحملة شعواء على أطباء العيون الذين لم يخترعوا الى الآن عوينات ثابتة لا تخلع ولا تنسى مثل تركيبة أسنانه الحديثة ، وهنا يكشف عن أسنانه الذهبية ويمعن في وضعها واطرائها ..

وللشيخ أسعد هذا ابن دميم الخلق ، ورث أخلاق أبيه ، لا يفكر الا في شهواته ، ولا يهمه الا ما يرضي نفسه . كل الناس يكرهونه ويكرهون سخريته بالفقراء وازدراء الضعفاء ، ويعرفون الشيء الكثير عنه ولكن من الذي يقدر على انتقاده واستهجان أعماله ووالده لا يفتأ يتغنى في كل مجلس بأخلاق ابنه ومحاسنه وآدابه .

وهذان الشخصان رفقاء الشيخ أسعد يعرفهم سليمان حق المعرفة ، فهم من أولئك البؤساء الذين يبيعون ضمائرهم بالنزر البسيط من حطام الدنيا ، فيعيشون مما يجلبونه من ثمار نفاقهم وتملقهم وخنوعهم .

تربع الشيخ أسعد في صدر القاعة وجلس أتباعه عن يمينه وشماله ، وأخذ يجيل نظره في الغرفة ويتفقد أثاثها ، وينتقد ذوق صاحبها في الاختيار والترتيب ، وهو يقارن كل قطعة من الرياش بما يملكه منه ، ويذكر الفارق العظيم بينهم ، ولم ينس - ولو مرة واحدة - ذكر قيمتها الباهضة ، والبلدان النائية التي جلبها منها ، كل ذلك ورفيقاه يؤمنان على أقواله ويؤكدانها - كعادتهما - ثم عرج الرجل على ذكر تجارته ، ومقدار ثروته ونفوذ سلطته ، الى أن ضاق مضيفه ذرعا به ، وابتدره قائلا وهو يحاول أن يخفي ضجره :

- تشرفنا يا شيخ أسعد بهذه الزيارة الميمونة ...

قال سليمان هذا وهو يحاول أن يدير دفة الحديث الى الغرض من زيارته ، ولكن الشيخ أسعد كان مسترسلا في مدح ابنه ، ووصف عمارته الجديدة ، واطراء مهارة سائق سيارته ، وخوف خدمه الشديد من بطشه ، وكان يعقب على كل ذلك بذكر التكاليف ، فما كنت تسمع منه الا «أربعة آلاف ذهبة .. عشرة آلاف ذهبة» .

والذهبة هي الجنيه الذهبي في لغة الشيخ أسعد . ولما فرغ من سرد أحاديثه اعتدل في جلسته استعدادا للكلام في الأمر الذي جاء من أجله ، وأمسك بلحيته الجرداء وقال :

- يا شيخ سليمان ... لقد تشرفنا بزيارتك ، وقد جئناك خاطبين في الحسيبة النسيبة ابنتك لابني رؤوف ، وقد أردنا مصاهرتك ، ولا أظنك ترفض مصاهرتنا .! قال هذا وضغط على الجملة الأخيرة اعتزازا بنفسه ، وملمحا الى الشرف العظيم الذي يحرزه من يغتنم فرصة مصاهرته ..

وكان ينتظر من سليمان أن ينكب على قدمه فيلثمها ويقول له ان ابنتي جاريتك ، هذا ما كان أسعد ينتظره ، أو هذا ما أدخله رفيقاه في روعه ، ولهذا كانت الصدمة التي تلقاها عنيفة ، ففغر استغرابا واحمر وجهه غضبا حينما سمع هذا يجاوبه بقوله :

- أرجوك المعذرة يا سيدي ، فان ابنتي مخطوبة لابن خالتها منذ هذا اليوم .

ولم يشأ سليمان أن يسأله أي ابنتيه يريد لأنه كان عازفا عن مصاهرته ، وقد واتته الفرصة للاعتذار ..

- ومن ابن خالتها هذا ..؟

صاح أسعد بلهجة السيد الآمر ، وأجابه سليمان وهو يحاول أن يكبح من جماح غضبه :

- ابن خالتها جميل صادق

- ما مهنته ..

صرخ الثري كأنه قاضي تحقيق :

ـ موظف في الحكومة .

أجابه سليمان بكل برود ، ولكن أسعد لم يقتنع وأراد أن يلقي بآخر سهم في جعبته فأجابه بحدة :

ـ لا أدري ... اذا كان من الحكمة أن تزوج ابنتك من شاب فقير يعيش من النزر التافه التي تتكرم به الحكومة عليه وترفض زواجها من ثري في استطاعته أن يسعدها ويسعدك .

وهنا لم يستطع سليمان أن يخفف من غضبه فقد كانت الاهانة لاذعة فأجابه بلهجة بادية الغضب والاستياء ولكنها هادئة رزينة :

ـ ليست ابنتي بضاعة ـ يا شيخ أسعد ـ أريد التكسب من ورائها ، واني والحمد لله في غنى ، أما جميل فهو شاب صالح وعمله لا يختلف عن عمل أغلب مواطنيه ، ودخله لا يقل عن دخل زملائه ، وقد قررت نهائيا زواج ابنتي منه .

وبهذا قفل باب البحث في وجهه ووجوه أتباعه الذين حاولوا عبثا أن يقنعوا ببراعتهم ، سليمان بتغيير فكرته . وانفض المجلس وأسعد يرغي ويزبد غضبا مهددا بأنه لا يعرف أحدا غير هذا الرجل رفض له قولا .

لو دخل قبل هذه اللحظة أي مخلوق الى الغرفة المجاورة لوجد زكية جاثمة على ركبتيها في ظلام حالك وهي تصغى بامعان الى ما يدور بين أبيها وزواره ، حتى أنها لم تستطع أن تحبس الصرخة التي فرت من بين شفتيها حينما سمعت والدها يصرخ «بأن ابنته مخطوبة لابن خالتها جميل» وفارقت مخباها وهي تحلق في نشوة من السرور والابتهاج والسعادة وشفتاها تتحركان بهذه الكلمات :

اذن قد خطبني جميل .. وكان مجيئه اليوم ليطلب يدي ، يا للسعادة ..

وطارت بأجنحة في أجواء السعادة وهي تحلم ببيتها الجديد ، فترى نفسها تارة في أحضان جميل وهي تحدثه عن الأيام الأولى التي أحست فيها بحبه ، وتتخيل نفسها تارة أخرى تلاعب طفلا يشابه أباه في سمرته ، ولكنه ورث عيني والدته .

وبدت لها فجأة صورة أسعد وهو يرغي غاضبا مهددا وخالجتها بعض المخاوف أخرجتها من أحلامها المعسولة ، فانها تسمع بالشيء الكثير عن سمعة هذا الرجل

الذي لا يتورع عن أقسى الأعمال وأشنعها .

وفي هذه اللحظة نفسها كان الشيخ أسعد في طريقه الى بيته ونيران الغضب تلهب فؤاده وهو يردد :

- أيجرؤ سليمان هذا الحقير أن يرفض مصاهرتي ؟ سأعلمه كيف يحترمني ... سأجعل منه عبرة لأمثاله المتكبرين المأفونين .

وغدت روح الشر فيه تعرض عليه أنواع الجرائم والآثام وما طفق أن ابتسم ابتسامة صفراء مخيفة تدل بجلاء على الخطة الجهنمية التي ابتكرها للانتقام من غريمه .

وبلغ رؤوف أن سليمان خليل رفض أن يزوجه ابنته وفضل عليه جميل صادق ذلك الشاب الفقير الخامل ، فثار غضبه وحنقه وراح يلعن ويتوعد ويقسم ..

- سألقي على جميل درسا قاسيا يعلمه كيف يعترض طريقي .. سأفوز بها أيها المأفون .. رضيت أم كرهت ..

خرج جميل ذات مساء يتجول في ضاحية جرول وهي أجمل ضواحي مدينة أم القرى وأوسعها ، حيث انفرجت عندها سلاسل الجبال العديدة الملتوية كالأمعاء في مراوي ابراهيم فكشفت عن بطحاء شاسعة رائعة المناظر..

وكان الجو قاتما ، والغيوم متلبدة ، فأخذ الشاب يسير على غير هدى متجولا هنا وهناك ، يمشي الهوينى ، سابحا في بحور الأحلام وهو يفكر في انهاء زواجه ، وقد زادت رغبته في سرعة انجازه منذ أن سمع أن أسعد تقدم بعده طالبا خطيبته العزيزة لابنه رؤوف ، وراح جميل يقارن ما بين أسمى تلك الفتاة الطاهرة الفاتنة وذلك الشاب الخليع الرميم ابن ذلك المرابي الذي يمتص دماء المساكين والضعفاء بدون رحمة ولا شفقة ، ذلك الذي يعتبر المادة فوق كل شيء ، فوق الانسانية ، فوق المروءة ، فوق الفضيلة ، واما مبدؤه المعروف فهو :

«لا فضيلة لفقير» .

- أفي هذه البيئة الموجودة الغارقة في حمأة الرذيلة يريدون أن يعيش ذلك الملك الطاهر ؟ ألا تبالهم ..

ردد جميل هذه العبارة ما بين شفتيه وهو سائر في تجواله سابح في أفكاره ، واذا بقهقهة عالية مستهترة تتردد وراءه أيقظته من غفوته ، والتفت بغتة بحركة آلية ، واذا برؤوف أسعد يسير خلفه بخطوات ماجنة يحوطه نفر من مختلفي المرتزقة والمتسولين .

ورشقهم جميل بنظرة ملؤها الاحتقار والازدراء وتابع طريقه ، ولكن غريمه الحاقد الناقد لم يترك له فرصة الابتعاد امنا مطمئنا ، وما كاد يتنبه حتى راح يمطره بوابل السباب والشتائم ورفقاؤه يشجعونه بضحكاتهم ويحثونه على أفعاله .

غلى الدم في عروق جميل واستولى عليه الغضب فأنساه سبل الحكمة والرشاد ، ومن دون أن يشعر وهو في ثورة غضب شديد ، رجع اليه وأطبق على عنقه بقبضة فولاذية وأخذ يصفعه على وجهه صفعا عنيفا ، والثاني يصرخ ويولول وأصحابه الجبناء ينادون رجال الشرطة بصرخاتهم الداوية ، وأخيرا قدم نفر منهم مسرعين وثار عجبهم وسخطهم حينما وجدوا رؤوف نجل ذلك الثري العظيم يهان ويضرب على قارعة الطريق وانقض الجميع على جميل وأخذوا يضربونه ويكيلون له الشتائم وقدوه أخيرا الى القسم وهو يغلي كالمرجل من شدة الغضب ، وهكذا اقتيد الى سجن المركز الاحتياطي وزج فيه دون أن يسمع الى احتجاجاته الصاخبة ..

قضى جميل ليلته في السجن ، وسيق في الغد الى مكتب التحقيق بتهمة السكر والاعتداء ، ووجد هناك رؤوف يصحبه شاهدان في انتظاره ، وكانت شكاية رؤوف تتلخص فيما يلي :

«بينما كان هو ورفقاؤه يتجولون في ضاحية جرول واذا بجميل في حالة سكر ظاهرة تقدم نحوه وطلب منه أن يقرضه مبلغا من النقود ، ورفض هذا الأخير لتأكده من أنه سينفقه في سبيل الشيطان ، وما كان من هذا الا أن هاجمه وضربه ..»

وطلب الشاهدان فشهدا بذلك وأكداه .. وقدمت القضية بعد التحقيق الى المحكمة حيث استمع القاضي من جديد الى أقوال المتهم وشهادة شاهديه وأنكر جميل التهمة ولكن المحكمة لم تستمع الى انكاره واحتجاجاته وقررت ما يلي :

«حيث أن جريمة السكر أشد من جريمة الاعتداء ألغيت القضية الثانية وحكم على جميل بحد الخمر وهو ستة شهور سجنا وثمانون جلدة في كل شهر ، وصرخ الفتى واستنكر الحكم وأقسم على براءته ولكن بدون جدوى ، فقد شهد عليه شاهدان عدلان ، وسيق الشاب البريء الى أعماق السجن حيث حشر

هناك بين اللصوص والمجرمين من البدو وغيرهم ، وما كاد يستقر حتى هاجمته جيوش القمل والحشرات التي تتجول آمنة مطمئنة في هذه الغرف المظلمة . وجلس الفتى في ركن منعزل وهو على أسوأ ما يكون من الحالة النفسية ، مصفر الوجه ، محطم الأعصاب كان يمثل بحق الفضيلة المطعونة في صميمها ، المغلوبة على أمرها وزاد تأثره حينما بدت له الرذيلة المنتصرة يؤيدها الجاه الكاذب الذي شيدته المادة ، يؤازرها شهود الزور الذين خلقتهم المادة . ولا سيا هذه المادة التي جمعت من الحرام من أموال الضحايا الكثيرين بطرق الربا وغيرها من أنواع اللصوصية المشروعة في عرف الانسان وقانونه ، قانون الانسان الذي يدين البائس الجائع وهو يختلس رغيفا يعد من حقه ما دام من حقه أن يعيش .. ويرمق بعين الاكبار والاجلال الثري العظيم وهو يسلب أموال الناس جهارا يحميه القانون الذي وضعه الانسان ويساعده ..

شاعت في جميع أنحاء أم القرى مأساة جميل صادق وادانته بتهمة السكر ، وكانت مسألته حديث العام والخاص ، وأثارت تعجب الكبير والصغير ، وما من شخص في مكة يعرف جميل الا ويعرف فيه الاستقامة والصلاح والمثل الأعلى للفضائل والتقوى بقدر ما يعرف عن غريمه من الاستهتار وسوء الأخلاق الشيء الكثير .

وكان أشد الناس حزنا وألما سليمان خليل الذي كان واثقا من أن المسألة كلها ليست سوى لعبة دنيئة دبرها أسعد وابنه في الخفاء يؤيدهما في ذلك مأجوروهما من عديمي الضمائر .

وبذل سليمان جهده في اخفاء هذا الخبر المؤلم الحزين عن أسرته وهو مع ذلك متيقن من استحالة ذلك ... وفعلا ما برح الخبر أن تسرب الى بيته حيث تبرعت عجوز شمطاء من أولئك العجائز اللواتي لا عمل لهن الا التطواف في دور الناس ولا هم لهن سوى نقل أخبار السوء من هنا وهناك ، بعد ما يضفن اليها ما شاء لهن خيالهن الخصب من توليد الحواشي والتعليقات .

ولهذا لم يكن من المستغرب أن تنقل هذه العجوز نبأ مأساة

جيل الى أسرة سليمان خليل ، وأن تؤكد وهي تظهر التأسف والحزن أنه سيحكم عليه بالاعدام .

وكانت الصدمة عنيفة قاسية على الجميع ، ولكنها على زكية أشد وأعنف ...

وناهيك بحزن فتاة عاشقة ولهى تظهر أن الحظ حليفها وتتوهم أنها كسبت المعركة ، وأن أملها أصبح حقيقة لاشك فيه ، واذا به ينهار بهذه السرعة المرعبة ...

هذه الفتاة التي كان همها الوحيد في هذه الحياة أن ترى نفسها يوما في أحضان من تحب ، فجميل هو حياتها الغالية وعالمها الذي تعيش فيه ، والسعادة التي تنشدها ، واذا به يختطف من بين يديها ، وينتزع من أحضانها ، ليغيب عنها الى الأبد ... الى حيث لا تراه ولا تسمع صوته .

واستولت عليها نوبة نفسية مبرحة ، وأخذت ترتجف وتضاربت في نفسها قوتان جبارتان : الحب وتقاليد الأسرة فهذه الأخيرة تحثها على التظاهر بعدم المبالاة وعدم الاكتراث والمحافظة على شرف الأسرة ، والحب الذي حطم قلبها وتركه يتفجر أسى وآلاما يتطلب الثورة والنحيب وهذه الدموع المتحجرة التي تحرق مقلتيها السوداوين وتثقلها تطلب التخفيف .

هذا هو موقف زكية في اللحظة التي تلقت فيها النبأ المشؤوم ، وأي شيء تستطيع هذه الفريسة الضعيفة ازاء هذه

العوامل القوية الفتاكة ، وأنى لهذا المخلوق الخائر القوى أن يثبت ما بين هاتين القوتين الجبارتين في عراكهما العنيف .

وأخيرا استسلمت للقوة المتغلبة ، وكان المتغلب هذا القلب المتألم الثائر ، ومن دون أن تشعر أرسلت هذه الفتاة صرخة مدوية وغدت تولول كالتعكر ورأت جميع أفراد أسرتها يصوبون اليها نظرات حادة فهمت منها علامات السخر والتحدي . فلم تتحمل ولم تطق صبرا فخارت قواها وخرت مغشيا عليها ...

كان هناك مخلوق آخر لا يقل حزنا وألما عن زكية وما ذلك المخلوق الا والدة جميل التي كاد أن يقتلها النبأ ويقضي عليها . وغدت تجري من مكان الى مكان لتستنجد بسراة القوم وذوي الجاه والسطوة ولكن من يلتفت اليها أو يستمع الى انات قلبها الجريح أو يرثى لأمومتها المعذبة .

فكانت كلما استنجدت بشخص حولها على آخر ، وهكذا الى أن أعياها التطواف بدون جدوى ، قصدت دار أختها وهي في حالة شديدة من البؤس .

وما كادت تلج الدار حتى أذهلت ونسيت مصابها ..

فقد كانت زكية في اغماء وأهلها حولها يحاولون ايقاظها بشتى الوسائل ، وبعد جهد جهيد أفاقت الفتاة وفتحت عينين واسعتين تلمعان ببريق غريب مخيف . وأخذت تجيل نظرها - في الحشد الملتف حولها ثم أرسلت قهقهة عالية ، وكلمتها والدتها فرشقتها بنظرة بلهاء خالية من كل معنى ، وفهمت الوالدة المأساة وصرخت :

- ابنتي العزيزة ..! آه يا ابنتي ..!

وغدت تنتحب وتولول ، وسرت العدوى الى البقية الباقية من الحاضرين فعلت الاصوات بالعويل والبكاء ، كل ذلك والفتاة غارقة في ذهولها تبكي معهم تارة وتضحك أخرى ، فقد فارقها عقلها .

واستدعى والدها في الحال ، وكاد أن يطلق العنان لأحزانه ويغدو يبكي كالأطفال والنساء ، وما أحوج قلبه المحطم المتألم الى البكاء .. ولكنه تمسك رغم كل ذلك برباطة جأشه ، وما عساه أن يفعل غير هذا ..

واستدعى الطبيب في الحال ، وبعد الفحص قرر انها أصيبت فجأة بخبال اثر صدمة عصبية عنيفة .. وهكذا توالت لطمات القدر وضرباته القاسية على هذه الاسرة التي كانت قبل أيام قلائل تعيش في سعادة وأمان واطمئنان .

والعادة في مثل هذه الأسر التي تعيش بقلوبها وعواطفها حلقات متماسكة اذا انفرطت حلقة منها هوت الأخرى أثرها .. واذا أصابت يد الأقدار قلبا تصدعت بقية القلوب وتألمت .

مرت عشرون يوما على جميل في سجنه عانى فيها أشد الألم والحزن ، وناهيك بألم المظلوم الذي يدفع حساب ذنب لم يقترفه ، ويسجن عقابا على فعلة لم يرتكبها . بينما الملبسون بها أحرارا طلقاء يمرحون ويتمتعون .

وناهيك بحزن فاضل تقي يتهم برذيلة هو أبعد الناس عنها ويدان لأجلها ...

لم يبق على موعد جلد جميل للمرة الأولى سوى عشرة أيام حيث يخرج من سجنه بعد صلاة الجمعة ويطرح في الشارع ويجلد أمام الناس ثمانين جلدة ، يعاد بعد ذلك الى غيابات سجنه منتظرا آخر الشهر ليجلد مرة ثانية وهكذا ثالثة ورابعة وخامسة الى أن يدفع أجرة هذه التهمة المزورة .

وكان غريمه رؤوف ينتظر هذا اليوم بفارغ الصبر ليزمنه ويشفي غليله وهو يرزخ تحت عصي الجند وهم ينهالون عليه بكل قوائم الى أن يغمى عليه فيرمى في غرفة حيث يعاد الى غرفته المظلمة ينتظر اعادة الكرة . وكان جميل يفكر في هول هذا اليوم العصيب الذي يظهر فيه أمام العام والخاص وهو

يرزخ تحت القيود الحديدية كأنه مجرم خطير فيرثي لحاله الصديق ويشفي منه العدو يالها من فضيحة ... فضيحة الفاضل ... ويا لها من عقوبة .. عقوبة البريء ...

ولم يستطع جميل أن يمسك سيل دموعه المنهمرة فترك لها العنان وغدت تتساقط كالمطر الغزيز أحر من جمر وصاح في حالة حزينة من شدة الأمر ...

ـ اللهم انك تعلم اني بريء ... وان كان قضاؤك قد نزل فاني لا أسألك رده وانما أسألك اللطف فيه فاقبض روحي اليك ـ يا الهي ـ فانني لا أقوى على هذه الفضيحة ...

وفي هذه اللحظة دخل مربيه الشيخ سليمان خليل يقوده شرطي وقد بدا لجميل وكأنه قد خطا عشر سنوات الى الأمام في هذه الأيام القليلة ، فأدرك ما يعانيه هذا المربي الرحيم من أجل محنته ... وهو يجهل بعد المحنة الأخرى ... محنة تلك التي فارقت عقلها من أجله .

والحقيقة أن الصدمات التي انهالت على سليمان حطمته وتركته يبدو شيخا هرما في التسعين من عمره .

ورمى جميل بنفسه في أحضان مربيه وغدا يبكي كالطفل وهذا يشجعه ويطمنه حتى اذا ما هدأت ثائرته راح يؤكد له أن جميع الناس واثقون من براءته ثم صرح له بأن الملك قادم في هذه الأيام للحج ويتقدمون اليه ويرجونه الافراج عنه وسيحق الله الحق ويدحض الباطل والملك ابن السعود معروف بذكائه وعدله.

منذ أن اعتقل جميل انتقلت والدته الى دار أختها حيث تولت السهر على زكية ، تلك الفتاة التي قضى عليها عراك نشب ما بين حبها المكبوت المكبل بالأغلال ، وعقلها المرهق بأعباء التقاليد الثقيلة ، فقد اتخذا من قبلها الفتي ميدانا لنضالهما فحطماه وتحطما معه ، وغدا سرها دفينا بين قلبها وعقلها المتين وغدت هي كالطفلة تمرح وتلعب وتستهتر وقد تخلصت من كل الآلام والقيود ... قيود العقل والقلب وآلامهما ..

وأصبحت لا تشتكي من شيء بقدر ما تشتكي من هذه العقاقير والرقى والتعاويذ والبخور التي يرهقونها ، فمنذ أصيبت زكية أصبحت دار سليمان خليل ميدانا واسعا للدجالين والسحرة فمن قائل أنها مسحورة ، ومن مؤكد ان ما بها هو من جن ، ولم تجد التمائم العديدة ولا الذبائح الكثيرة لولائم الجن وملوكهم وماذا عسى أن يفعل ملك الجن الضعيف أمام سلطان الحب الجبار .

وكانت خالتها فاطمة قائمة بالسهر عليها تنتظر بفارغ الصبر قدوم الملك الذي نصحوها بمراجعته أكد لها الكثيرون عدله وانصافه فان للملك ابن السعود مواقف كثيرة في مثل هذه

القضايا حتى غدا مضرب المثل بالحلم والكرم أخذت العجوز تترقب أنباء رحلة الملك من الرياض الى أم القرى باذن مرهفة ، وبينما كانت ذات يوم غارقة في لجج التفكير العميق اذ سمعت بغتة جرس سيارة الاطفاء يدوي بشدة في الشارع العام، تلك السيارة التي كانت تقوم باطفاء الحرائق اذا وصلت قبل فوات الوقت وتقوم كذلك برش الشارع العام يوم قدوم الملك أو أحد الأمراء .

وأطلت العجوز من شباك النافذة الضيق فبدت لها تلك السيارة الحمراء تحمل برميلها الضخم وهي تتهادى في خيلاء يحوطها جمع من الأطفال يصفقون مبتهجين وهم يرددون أغنيتهم المشهورة .

ـ الرشاش حرامي المويه ...

ومن هذا علمت المرأة المنكوبة أن الملك لابد قادم اليوم ، ومن دون أن تخبر أحد انسلت الى الخارج حيث قصدت أحد كتبة العرائض الذين يغص بهم الشارع المؤدي الى القصر الملكي في هذه الأيام التي يكثر فيها المراجعون كثرة عظيمة .

وقصدت أحد هؤلاء الكتبة وكان الازدحام شديدا ولكنها تمكنت بعد جهد أن تدفع الأجرة الى الكاتب الذي حضر لها استدعاءها بسرعة من دون أن يستمع الى ثرثرتها الطويلة .

وتوجهت لتوها نحو القصر الملكي ، وكان القصر يظهر في حلة بديعة مزينا بالأعلام الخضر ، وكان لفيف من الشرطة والجند مصطفا على جانبي الطريق في انتظار وصول جلالته

وذهبت العجوز تنزوي بعيدا وقد تبين لها للمرة الأولى أن مقابلة الملك ليست بالأمر السهل ، وعادها الوسواس ، وكاد أن يستولي عليها اليأس ولكنها عندما تصورت ابنها الوحيد يرزخ تحت قيوده في أعماق السجن ، ثار حنانها وعطفها الأمومي وبعث في نفسها قوة ، فقررت حينئذ أن تقوم بالمستحيل في سبيل ابنها ، وقد أحست في نفسها بعزيمة لا تقهر ، وجلست تنتظر مع المنتظرين .

وبعد ساعة وصل الركب الملكي من الرياض ، فكانت السيارة الملكية في المقدمة يعقبها نحو مائة سيارة بين صغيرة وكبيرة ، وقد اقحمت بالحجيج من الخاصية الملكية من حرس وعبيد وخدم ، وكان الجميع محرمين في أزرهم البيضاء ، وعلا ضجيج الهتاف والترحيب ، واختلطت أصوات تلاميذ المدارس وهم يرددون أناشيدهم بأصوات القادمين وهم يهللون ويكبرون ثم خف كبار الناس وسراة القوم الى السلام على الملك وتبارت الشعراء والخطباء في الترحيب والمديح ، واكتظ جمع عظيم من أرباب الحاجات والمتظلمين والمستجدين أمام القصر حيث وقف شرطي في وجودهم يمنعهم من الدخول .

واستطاعت والدة جميل أن تشق طريقها في هذا الازدحام الشديد ، وسلمت تلك الورقة التي أودعتها كل آمالها في الحياة الى الشرطي ، وأوصته بها خيرا ، وأفادها هذا بأن ترجع بعد يومين حسب العادة المتبعة في مثل هذه المناسبات .

عادت العجوز فاطمة الى القصر الملكي بعد مضي يومين وسلمها العسكري المناوب تحريرها ورجته أن يقرأ لها ما كتبه الملك على التحرير ، وأخذ العسكري الورقة وحملق فيها هنيهة ثم أعاد لها من دون أن يحل رموزها ، وأنى له ذلك وهو لا يفرق بين الألف والعصا .

وابتعدت المرأة بعد ما نهرها العسكري الذي أحرجت موقفه ، فذهبت تبحث عمن يقرأ لها هذه السطور القلائل وأخيرا عثرت على بغيتها ، وكم كانت دهشتها شديدة حينما علمت ان جلالته أمر لها بخمسين ريالا ...

- خمسون ريالا ... (صاحت المسكينة) اني لم أطلب نقودا وانما طلبت الافراج عن ولدي !

وتمعن الرجل في التحرير وأخبرها انه يحتوي على طلب معونة مالية نظرا للفاقة والاحتياج .

وهكذا كانت كل التحارير التي يقدمها هؤلاء الكتبة للأميين من المراجعين فهم يسهرون عليها الليل كله حيث يحضرون منها كميات كبيرة بأسلوب واحد وغرض واحد هو طلب المعونة المادية نظرا للاحتياج ، لأنهم لم يعهدوا من مراجعيهم الكثيرين سوى هذه الصفة حتى اذا ما قصدهم شخص كتبوا اسمه في أسفل التحرير من دون أن يلتفتوا الى ثرثرته ، وهكذا وقع لهذه المرأة المسكينة التي طلبت الافراج عن ابنها واذا بها تمنح نقودا ، ورجعت المرأة كسيرة البال حزينة القلب محطمة الجسم ، وقد

قطعت ما يزيد على ثلاثة أميال حتى وصلت الى القصر الملكي لتنقذ ابنها ، واذا بها تعود وبيدها أمر على خزينة المالية بصرف خمسين ريالا .

انطرحت العجوز على فراشها وغدت تبكي بدموع سخينة ، فلم يبق على جلد ابنها سوى يومين فقط ، وماذا عساها أن تفعل وقد سدت جميع الأبواب في وجهها .

الى من تلتجىء ... تساءلت المرأة ، وأجابها صوت من الأعماق صوت الايمان .

- الله ... التجيء الى الله ...

ونهضت مسرعة والتفت في ملاءتها السوداء ، وخرجت تتعثر في أذيالها حيث قصدت بيت الله ، وكان مزدحما بالحجيج ، وبكل صعوبة شقت طريقها الى الكعبة ووقفت منتصبة في الملتزم ما بين الحجر الأسود والباب ، وألصقت صدرها الهزيل بجدار البيت وتوجهت الى ربها بعينين وقلب محطم كسير وهتفت تدعوه بلسان متلعثم .

- انه لم يبق لي أحد سواك ... يا الله ... في هذه الدنيا

- انك أعلم العالمين بمحنتي يا الهي ..

وانعقد لسانها فلم تستطع أن تتفوه بكلمة وانما غدت دموعها تعبر عنها في سكون ، وأخذت تنحدر كالمطر ... وما لبث الزحام أن تكاثر فاضطرت الى الخروج وهي تود لو بقيت مدى حياتها في هذه البقعة التي وجدت فيها الاطمئنان والراحة والسلوى .

بلغ العجوز فاطمة ان الملك سينزل اليوم لصلاة المغرب في الحرم فخرجت للشارع العام واذا بها تجده مرشوشا مزينا وقد اصطفت الجند يمينا وشمالا وأوقفت حركة المرور وتجمهر الناس من رجال ونساء وأطفال لرؤية هذا العاهل العظيم الذي غمرهم بعطفه ، ووقفت فاطمة مع الواقفين .

وما هي الا لحظة حتى بدت السيارة الملكية تسير في تراخ وقد وقف على جانبها عبدان أسودان مدججان بالسلاح وحيا الجند الملك الذي أخذ يرد تحيته وتحية الشعب بحركة من يده ، ولم ينتبه الناس الا وشبح أسود ، شبح امرأة تقفز وسط الشارع معترضة السيارة الملكية التي وقفت فجأة ووقف وراءها سيل السيارات العديدة التي كانت تتبعها في خط مستقيم .

واستل العبيد سيوفهم والتفوا حول مولاهم يحمونه وصاحت المرأة بأعلى صوتها والبكاء .. يخنقها وقد بدا وجهها مصفرا شاحبا ولوحت بذراعيها المزيلتين في الهواء .

– ولدي .. ولدي .. يا مولاي .. انقذوا ولدي المظلوم .

واسرع الجند الى ابعادها عن الطريق ولكن ابن السعود ظهر بقامته المديدة صائحا بصوته الرخيم :

ـ دعوها ..

وتقدم نحوها وقد ارتمت هذه على قدميه ولكن الملك صاح فيها :

ـ قومي .. قومي .. يا عجوز .. قولي ماذا دهاك وأسرت المرأة اليه بكلام كثير وهو يصغي اليها بامعان حتى اذا ما انتهت ربت على كتفها وأخذ يطمئنها .

ـ عودي الى دارك ... سننظر في قضية ولدك ، وتنحت المرأة عن الطريق واستأنف الركب سيره والناس في صمت رهيب متعجبين متسائلين .

شاعت في جميع أنحاء القرى أخبار المرأة التي أوقفت ركب جلالة الملك وغدا الناس يتكهنون بمعرفة شخصيتها وغرضها ونفر قليل هم الذين ... تبينوها وفي مقدمتهم زوج أختها الشيخ سليمان خليل الذي وجد عفوا في جملة المتجمهرين وما كاد يتحرك الركب الملكي حتى أسرع الى بيته يستجلي الخبر من العجوز التي وجدها هادئة الاعصاب على خلاف عادتها في كل يوم ، وقبل أن يوجه اليها أي سؤال ابتدرته .

- قلت للملك كل شيء .. أخبرته أن زوجي قتل في الدفاع عنه ، وان ابني الوحيد ، الثروة الوحيدة التي خلفها لي ذلك الزوج وسندي في هذه الحياة يرزخ الآن ظلما تحت قيوده في غياهب السجن ... أخبرته عن أسعد وعن أعماله وأفهمته ان ابني طاهر مستقيم ، كل مكة تشهد له بذلك .. أخبرته بكل شيء ..

وصاح الرجل :

- بكل شيء ! أأقحمت ابنتي في هذه المأساة ، يا للفضيحة ولم تنتبه العجوز لملاحظته وهي نشوى بخمرة الأمل فغدت تردد :

- لقد وعدني بالافراج عنه .. لقد وعدني باعادة النظر في أمره ... انه حقا .. لملك كريم عادل .

واستراح سليمان لهذه النتيجة ، واطمأن لها رغم انه كان يريد أن تبقى ابنته بعيدة عن هذه القضية .

وفي هذه الأثناء بدت ابنته زكية من بعيد وهي شاحبة اللون وقد سرى الهزال في جميع عضلاتها ، فخاطبها وقلبه يقطر رحمة وحنانا ..

- زكية .. تعالي يا ابنتي ! وتقدمت هذه نحوه في وداعة وهدوء وجلست أمامه بسذاجة كما كانت تفعل يوم كانت طفلة في السادسة من عمرها ، وأخذ أبوها يحدثها عن جميل وهو لا يدري لماذا اختار هذا النوع من الحديث عن سواه ولعل تأثره الشديد بقضية جميل هو الذي تركه يتحدث عنه في هذه الساعة ويقول :

- أتعرفين جميل ابن خالتك ؟..

مسحة اكتئاب .

واسترسل الوالد محاولا اختبار ذاكرتها :

- أتدرين أين هو الآن ؟

- قتلوه ...

أجابت الفتاة بصوت هو أشبه بالحشرجة منه بصوتها الموسيقي العذب المعتاد ، ولاحظ والدها بشدة تأثرها فأجابها .

- لا ... يا ابنتي ... من يقول انه قتـل ؟ فهو حي يرزق وسوف ترينه في القريب ..

وتغيرت حالة الفتاة فجأة واحمر وجهها وبدت بشعة مخيفة وصرخت :

انكم تكذبون علي ... قتلتموه ... قتلتموه ..

وغـدت تصرخ وتجري على غير هـدى ، وهـوت رجلهـا فسقطت واصطدم رأسها بحجر درج السلم الصلبة وكانت الصدمة عنيفة فأغمى عليها وأخذ الدم يتدفق من رأسها بغزارة .

واستدعى الطبيب في الحال حيث أجري الاسعافات الأولية اللازمة ، ولما عاد في الغد قرر أن نبضها ضعيف جدا وأن حالتها في خطر .

ما كاد يعود جلالة الملك ابن السعود الى قصره حتى استدعى مدير الأمن العام وأمره بايقاف تنفيذ الحكم الصادر على جميل صادق ، على أن يحضره حالا ويحضر المتهم وشاهديه لينظر بنفسه في قضيتهم .

وبعد مضي ساعة واحدة كان رؤوف وشاهداه في حضرة الملك . وكان حاضرا لفيف من الأعيان والوجهاء ومن بينهم الشيخ أسعد ، وكان سكون رهيب يسود المكان والجميع غارقون في صمت عميق ، وعلى حين غرة اخترق صوت الملك هذا السكون الشامل :

- هل بقي أحد لم يحضر بعد ؟

- كلهم بين أيديكم - يا مولاي -

أجابه مدير الأمن العام :

- ما عدا المتهم جميل صادق سيحضر بعد قليل .

فسأل الملك عن صاحب التهمة رؤوف أسعد الذي تقدم بين يديه بادي الخوف مرتجف الأعصاب ، ورمقه الملك بنظرة حطمته وتركت لسانه يتلعثم وهو يدلي بتهمته .

وصاح الملك : ـ أين الشهود ؟

وقدم مدير الأمن أمامه شابين في مقتبل العمر فحصهما الملك بنظرته الخبيرة ، فألقاهما خائري القوى من شدة الوجل وذنبهما باد بوضوح على صفحتي وجهيهما واستل سيفه المرهف الحد من غمده فبدا لمعانه كأنه وميض برق ، وصرخ فيهما صرخة مدوية :

ـ انظرا لهذا السيف ... سيلعب الآن في رقابكما ان لم تقررا لي الحقيقة ...

واستولى على الشابين رعب شديد ، وانعقد لسانهما ، وتبادلا نظرة خاطفة ، وأخيرا تكلما معا بصوت مرتجف :

ـ العفو .. يا مولاي .. سنقول الحقيقة لا تقتلونا .

ولو التفت أحد في هذه الأثناء الى الشيخ أسعد لوجده بادىء الاضطراب رغم محاولته في التظاهر بالثبات .

وتكلم الملك ولكن بلهجة أقل شدة من الأولى :

ـ تكلما واحدا واحدا ... تكلم أنت (وأشار الى أصغرهما) ـ قل الحقيقة واياك والكذب ...

وأجابه هذا والعبرات تخنقه :

ـ ان رؤوف هو الذي غرر بنا يا مولاي .

وراح يعيد القضية بحذافيرها على مسامع الملك الذي استشاط غضبا عندما انكشفت النذالة أمامه وصاح :

ـ خذوا هذا اللعين السافل الى السجن وسودوا وجوه هؤلاء الشهود المزورين وطوفوا بها الشوارع ليكونوا عبرة لغيرهما .

وسكت الملك وسكت الجميع وعم السكون من جديد وفي هذه اللحظة تقدم ضابط شرطي نحو مدير الأمن العام وأسر اليه بكلام في أذنه ترك تأثيره الاضطراب يبدو على وجهه فتقدم نحو الملك وقال له بصوت تشوبه رجفة حزن :

- أطال الله بقاءك - يا مولاي - فقد قضى الرجل نحبه

- أي رجل ؟

صاح الملك وضرب فخذه براحته العريضة :

- المتهم جميل صادق - يا طويل العمر -

- ماذا تقول ؟...

- هو ذاك - يا مولاي - فقد وجد جثة هامدة في فراشه

- انا لله وانا اليه راجعون ...

قال ابن السعود بلهجة حزينة وأطرق مفكرا .

بينما كان الملك ابن السعود وجلساؤه يشملهم السكون الرهيب كأن على رؤوسهم الطير كان سليمان خليل وأسرته بما فيهم والدة جميل ملتفين حول زكية وهي ممدودة على فراشها وقد ساءت حالتها وازدادت خطورة ، وكان الجميع واجمين يذرفون دموعهم الحارة في سكون ، وكلما تثاقلت أنفاس الفتاة اشتد اضطرابهم وزاد يأسهم ، وكانت الفتاة في شبه غيبوبة لا تبدي حراكا ولا مقاومة بل كانت مستسلمة راضية .

ثم استيقظت فجأة وفتحت عينيها النجلاوين وأخذت تنقل نظرها ببطء بين الحاضرين كأنها تودع كل واحد منهم بنظرة خاصة . واستبشر الحاضرون بهذه البادرة وعاد شيء من الأمل الى نفوسهم ثم وجهت الفتاة نظرها الى السقف وأخذت تطيل النظر وتبتسم .

وسألها والدها :

- زكية كيف حالك الآن ؟

ولم تلتفت الفتاة اليه ولم تجبه ، وانما أخذت تردد وهي تحملق في السقف : - جميل !.. ها أنذا !..

ولم يفهم أحد من الحاضرين ما تعنيه وانما طفقوا كلهم ينظرون اليها وعينها مثبتة في العلو وابتسامة جميلة تعلو شفتيها ، ولبثوا على هذه الحالة .

ثم لمس أبوها جبينها براحته الهزيلة المرتجفة فألفاه باردا مثلجا ... وحدق في عينيها فوجدهما جامدتين ، وتحسس أنفاسها واذا بها قد انقطعت ... فصاح : ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

وغدا يبكي كالطفل ، وثار عويل الباقين وصراخهم فقد سلمت الفتاة أنفاسها الأخيرة وتخلصت من عالمها المادي وقيوده الثقيلة ، وحلقت بروحها في عالم الأرواح لتبحث عن حبها المفقود .

وفي هذه الأثناء وقف أمام نزل الشيخ سليمان رسولا القصر الملكي يحملان نبأ وفاة جميل ، واذا بهما يسمعان العويل والنحيب فمكثا برهة ثم قال أحدهما للآخر :

ـ هيا بنا ... فقد وصلهم الخبر ..

(انتهت)